التصور الفينومينولوجي للفعل العلاجي عند كارل ياسبرس

ملخص

يتناول هذا المقال الفلسفة الطبية عند الطبيب والفيلسوف الألماني كارل ياسبرس. والتي تهدف بوجه عام إلى صياغة الطب صياغة فلسفية معيارية وتقييم الواقع الطبي وهو محمل بالمعاني التجريبية الخالصة. ولهذا ياسبرس بإعادة قراءة الطريقة الطبية الشائعة في زمنه قراءة قيمية تتألف من الترابط والتوافق بين العلم والفلسفة بوجه عام وبين الطب والفلسفة الفينومينولوجية بوجه خاص. وهي فلسفة تمثل طريقة جديدة في التفكير ألفها هوسرل و تمكن ياسبرس من تجسيدها خلال علاجه المرضى العقليين. هذه الطريقة سهلت له يتواصل مع المريض تواصلا معنويا أكثر منه تواصلا ماديا (يقوم على الوسائل التجريبية كالأدوية). ونقصد بالتواصل المعنوي هنا أن الطبيب في هذه الفلسفة لابد أن يحسن تشخيص المرض، وذلك عن طريق ربط المرض العقلي بأسبابه الحقيقية من حيث هي أسباب متنوعة تنوع الطبيعة البشرية، لأن هذا المرض يمكن أن تكون أسبابه عضوية، نفسية، اجتماعية وغيرها. هذا ما يلزم الطبيب بالإلمام بمختلف المجالات التي تساعد على التشخيص. كل هذا يدل على الروح الموسوعية و الفلسفية التي يجب أن تتوفر في الطبيب والتي تجعله يتوجه إلى المريض بالأساس وليس إلى المرض وذلك أملا من ياسبرس في القضاء على فكرة الإنسان الآلة، وهو الشرط الذي يفرض على الطبيب أن يتواصل مع باقي التخصصات .إن فلسفة التواصل تنفتح على جميع المستويات .

الكلمات المفتاحية: التصور الفينومينولوجي، الفلسفة الطبية ، كارل ياسبرس.

أ. جهاد تواتي

المدرسة العليا للأساتذة ، قسنطينة الجزائر

مقدمة

Résumé

Cet article traite de la philosophie médicale chez le médecin et philosophe allemand Karl Jaspers. Cette philosophie vise à concevoir la médecine d'une double perspective : la perspective philosophique (éthique) et l'évaluation du champ médical fondé sur une

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1، الجزائر2015.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

approche purement empirique. Le caractère exclusivement empirique de la médecine moderne constitue la principale raison qui a poussé Jaspers à réévaluer l'orientation médicale, dans son temps, à travers une lecture axiologique réunissant la philosophie et la science, en particulier la philosophie phénoménologique et la médecine. La phénoménologie était une nouvelle méthode philosophique créée par Husserl que Jaspers appliqua dans le champ psychiatrique. En tant que psychiatre, cette méthode lui a permis de faciliter la communication avec ses patients, notamment sur le plan moral, et pas seulement matériel (par le biais de moyens empiriques comme les médicaments). La communication morale désigne dans cette philosophie une condition qui amène le médecin à un meilleur diagnostic de la maladie parce que la nature humaine implique plusieurs facteurs qui provoque la maladie mentale : organique, psychique et sociétale. Par conséquent, le médecin est obligé d'être un encyclopédiste et un philosophe pour considérer globalement le patient et non pas seulement la maladie. Dans cette perspective, Jaspers veut éliminer l'idée de l'homme machine. Une telle exigence oblige le médecin à communiquer avec d'autres spécialistes. La philosophie de la communication est en œuvre à tous les niveaux.

Mots clés: La phénoménologie, Philosophie médicale, Karl Jaspers.

يعد موضوع الفينومينولوجيا la phénoménologie بمثابة لغة فلسفية معاصرة وراهنة، يمكن حصرها في الحقبة الزمنية التي تقترب من تأصيلها، ذلك لأن تناولها عند كارل ياسبرسKarl Jaspers يقترب كثيرا من تصوراتها التي أبدعها إدموند هوسرل Edmund Husserl، بحكم أنهما فيلسوفان قد عاصرا بعضهما البعض. كما أن تقريب الفهم حول فكرة الفينومينولوجيا يقتضي منا في بعض الأحيان أن نتناولها وهي في علاقتها وتفاعلها مع مختلف الأفكار الدالة على الفلسفة. ويمكن إدراكها أيضا وهي في تفاعلها مع مختلف الأفكار الدالة على العلم . وإذا كان الطب فكرة دالة على العلم، فإن تناول الفينومينولوجيا في علاقتها مع الطب أمر ممكن، مادام كارل ياسبرس عالم وفيلسوف لا يرى التناقض موجودا بين الفلسفة والعلم، وبالتالي لا يرى تناقضا في تطبيق المنهج الفينومينولوجي على كل من الظاهرة الفلسفية والظاهرة العلمية بما هي ظاهرة طبية .

ولقد كان ياسبرس متأثرا بهذا المنهج الذي ورثه عن إدموند هوسرل، هذا الأخير يعود له الفضل في تلك المجاهدة الفكرية التي توجه بها نحو فك الصراع القائم بين الذهب المثالي l'idéalisme والمذهب التجريبي l'empirisme عبر التاريخ الفلسفي. ومن ثمة حاول الفلاسفة المعاصرون دراسة هذه المشكلة عن طريق الحد من التفسير المثالي الخالص للظواهر الإنسانية، وكذا الحد من التفسير التجريبي الخالص للظواهر الإنسانية. لهذا السبب رأينا في هذا المقال أنه بالإمكان تناول هذا الحل الوسطي في الفلسفة بما هو حل فينومينولوجي من خلال توظيفه في فهم وتفسير الظاهرة الطبية تفسيرا فينومينولوجيا عند كارل ياسبرس. فإذا كانت الفينومينولوجيا فلسفة تمجد الإنسان وتعتبره محور التفسيرات الفلسفية والعلمية، فإلى أي مدى يمكن أن نبرر الظاهرة العلاجية في الطب العقلي عند ياسبرس تبريرا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحد من التصور التجريبي الخالص ويجعله طرفا فقط من أطراف العملية العلاجية ؟ هذا ما سنحاول أن نتناوله بالتحليل والمناقشة من خلال عرض التوافق بين الفلسفة والعلم عند ياسبرس في بداية الأمر، ومن ثمة عرض التوافق بين الفينومينولوجيا بما هي تصور فلسفي والطب العقلي la psychiatrie بما هو تصور علمي.

1- العلم و الفلسفة عند كارل ياسبرس:

لقد نشأ العلم قديما في أحضان الفلسفة التي كانت تضم جميع العلوم، وكان الإنسان في نفس الوقت لا يتساءل عن ظاهرة جزئية بعينها، إنما يتساءل حول الظواهر التي تبعث على الدهشة والخوف، وكان الفيلسوف هو الشخص الذي يتساءل حول الظاهرة le phénomène في تنوعها بين الصفة المادية والصفة المعنوية، ويحاول بناء نسقه الفكري بطريقة موسوعية تتصف بالشمولية. فإذا أخذنا على سبيل المثال النسق الفلسفي الأرسطي وجدناه متنوعا بين ما هو متعلق بالوجود وما هو متعلق بالنفس وما هو متعلق بالطبيعيات وكذا الإلهيات. هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن القول إن الفترة الحديثة والمعاصرة، شهدت تطورا لهذه العلاقة بين العلم والفلسفة، من خلال الطابع الجديد الذي يميز التفكير الفلسفي من حيث هو تفكير نقدي، وأصبحت الفلسفة مشروطة بالعلم، وليس كما كان العلم قديما مشروطا بالفلسفة.

لقد أصبح الفيلسوف يمارس الوظيفة النقدية بالأساس في وظيفته، والمادة العلمية هي المجال الذي يمارس عليه النقد. إلا أن هذا النقد كان يتعلق في سياق معين بنقد المعرفة العلمية الحديثة التي غلب عليها طابع التخصص la spécialisation، وهو النقد الذي تبناه كارل ياسبرس، والذي عاب من خلاله على العلم الحديث ارتباطه بالتخصص. ذلك لأن هذه العلوم المتخصصة علوم ناقصة لا تحقق المعنى الشامل لمفهوم الإنسان، فعلم النفس la psychologie علم قاصر، لأنه يتناول الإنسان من جانب واحد فقط، وهو الجانب النفسي، وعلم الاجتماع la sociologie علم ناقص، لأنه يتناول الإنسان من جانب واحد، وهو الجانب الاجتماعي فقط، وعلم التاريخ أيضا علم ناقص، لأنه يتناول الإنسان من زاوية واحد وهي الزاوية الزمنية فقط .

ولهذا السبب تساءل ياسبرس عن العلم الذي يدرس الإنسان ككل وليس كجزء، ووجد بأن الفلسفة هي المعرفة الكفيلة بأن تدرس الإنسان ككل. وقد انجر عن هذا الأمر محاولة ياسبرس من الناحية الفلسفية ومن الناحية الثقافية لاستعادة قيمة وأهمية الفلسفة كما كانت قديما. ومن ثمة أصبحت الفلسفة بالمعنى القديم، من حيث هي رابط بين العلوم، لا تتناقض مع الوظيفة النقدية لها في الفترة المعاصرة. لأن هذا النقد الذي صدر عن ياسبرس مال بنا إلى أهمية التوحيد والربط بين العلوم في الفلسفة، مثلما كان الأمر في الفلسفة القديمة على يد اليونان مثلا. يقول ياسبرس : " إن العلم بما هو علم لا يمكن أن يصل إلى نتائج أو أن يبلغ رسالته إلا بالفلسفة ، وعندما يطرح السؤال حول معناه يجب الأخذ بعين الاعتبار مسألة نسقه الكلي الشامل " .(1)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا كان شرط الموسوعية ومحاولة الإلمام بمختلف المعارف التي تهم الإنسان، شرط متوفر في شخص كارل ياسبرس بحكم أنه طبيب وفيلسوف، فإنه أراد أن يوظف في نسقه مختلف المفاهيم و المناهج التي تسمح له بتناول الظواهر العلمية بطريقة فلسفية. ومن بين المناهج التي وظفها خاصة في الطب العقلي نجد المنهج الفينومينولوجي la méthode phénoménologique ، والذي حاول من خلاله بناء العملية العلاجية في الطب العقلي، بما هو مجال علمي بناءا فلسفيا.

2- الطريقة الفينومينولوجية في الطب العقلي عند كارل ياسبرس :

أ- مفهوم الفينومينولوجيا :

تعد الفينومينولوجيا مفهوما فلسفيا يقوم أساسا على مقومات تاريخية فلسفية . حيث كانت الفلسفة منذ نشأتها إلى غاية الفترة الحديثة تعيش صراعا فكريا بين كل من المذهب المثالي والمذهب التجريبي، فاقترح إدموند هوسرل الفينومينولوجيا، واعتبرها بمثابة حكم بين المذهبين المتنافرين المتصارعين، لأن الفكر la pensée في نظر هوسرل لم يعد خالصا ، إنما أصبح متوجها إلى العالم الخارجي أو الموضوعات. وهي الفكرة التي أخذها هوسرل عن برنتانو الذي كان أول من شدد على القصدية l'intentionnalité بما هي مفهوم مركزي في الفينومينولوجيا ، وهو بدوره أخذ هذا المفهوم عن السكولاستيينles scolastiques ، الذين كانوا يطلقون كلمة القصد l'intention على اتجاه أو توتر الفكر نحو الشيء. إلا أنه وسع هذا المفهوم وجعله يشمل جميع الحوادث النفسية، حيث قال إن الوعي le conscient غير منطو على نفسه، بل ينتسب إلى غرض ما، وهذا ما يسمى بـ " علم النفس الفعل " psychologie de l'action (2). كما يمكننا اعتبار الخاصية التي تميز الظواهر النفسية هي القصدية أو الاتجاه نحو الموضوعات في صورة انكشاف مباشر لا يخطئ " إدراك باطني " ، شريطة أن يكون ذاك الإدراك هو نفسه موضوعا للإدراك ، أي أن الإدراك في الفينومينولوجيا هو إدراك الظاهرة وهي موجودة في الذهن، فهي إدراك الإدراك بتعبير آخر. وإذا كان برنتانو قد اشتق القصدية من المصطح السكولاستي " الوجود بالنية "، فإن هذا يدل على نشاط ذهني معين ، يتلخص في كوني إذا لاحظت على سبيل المثال، فإن ملاحظتي ستكون لمنزل أو لشجرة، وإذا قيل عني أني أشك ، فإن شكي يتجه نحو أمر ما، وإذا قيل عني أني مسرور فلابد أن يكون شيء أنا مسرور به (3).

ويعد المنهج الفينومينولوجي منهج ملائم للتوجه المثالي في الفلسفة الألمانية عامة وللتوجه المثالي الذي يمجده هوسرل خاصة. وبهذا المعنى يمكن القول إن فلسفة الظواهر، ما هي إلا صيغة إبستمولوجية صنعت صيغة أنطولوجية مثالية تختلف عن باقي المثاليات مثل مثالية كانط وهيجيل وشلينج، ولكنها تقترب من مثالية فيخته. وهي فلسفة تحاول تحليل النشاط العقلي تحليلا باطنيا تستبعد فيه الأحكام القبلية، لأنها تريد الوصول إلى الوجود الحقيقي أو الوجود المطلق عن طريق الخبرات الباطنية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للذات، من حيث هي خبرات خالية من اللواحق الحسية. ولهذا يمكن اعتبار الفينومينولوجيا محاولة لتصحيح المذهب التجريبي الذي ألفه لوك Locke وهيوم Hume وغيرهما من الفلاسفة التجريبيين، كما قامت الفينومينولوجيا على أساس من نقد ومناقشة نظرية المعرفة عند كانط . ولذلك كان التصور الفينومينولوجي لمختلف الظواهر المجردة منها والحسية، تصور معتدل يمجد النظرة العقلية التي تتصل بالعالم ولا تنفصل عنه (4).

إن اعتماد الفينومينولوجيا على الإدراك المباشر للظواهر ، يعني بوضوح أن هوسرل أراد أن يؤسس الفلسفة من جديد على أساس واضح قابل للإدراك إدراكا فعليا، فقد لجأ في الإصلاح الفكري الذي آمن به إلى منهج عيني للفكر الفلسفي، فتكون الوقائع الحية والملموسة هي الأرضية أو المجال الذي ينصب عليه الفهم الإنساني و ينصب عليه التأمل الفلسفي (5).

ب – أثر الفينومينولوجيا على الطب العقلي غند كارل ياسبرس :

إن التأمل الفلسفي الذي تحدثنا عنه آنفا هو التأمل الذي حاول ياسبرس أن يوظفه في الطب العقلي، فكانت أول مشكلة تعرض إليها في سياق الفلسفة الطبية، هي مشكلة التخصص التي تحدثنا حول مشكلتها سابقا من حيث هي مشكلة مرتبطة بالطب أيضا. لأن مجال الطب العقلي في نظر ياسبرس يفرض على الطبيب أن يلتزم بروح شمولية esprit totalitaire.

هذا، وإذا كان المرض العقلي يرتبط في أسبابه بالأسباب النفسية، كان على الطبيب أن يكون ملما بعلم النفس، وإذا كانت أسباب المرض العقلي اجتماعية، كان عليه أن يكون ملما بعلم الاجتماع وهكذا، بمعنى أن الطبيب لابد أن يكون موسوعيا في الفعل العلاجي. وأما إذا كان الطبيب لا يتوفر على الموسوعية ، فالأمر يتحول إلى التزام آخر وهو التواصل la communication مع أصحاب التخصص الذي له علاقة مباشرة بأسباب المرض العقلي ، كأن يتواصل مع عالم اجتماع إذا كان سبب المرض هو سبب اجتماعي، ومع البيولوجي إذا كان سبب المرض العقلي عاهة بيولوجية. الأمر الذي يحول الطبيب إلى فيلسوف، ويحقق أثر الفلسفة في الطب كما كانت قديما، ذلك لأن كارل ياسبرس ينظر إلى المريض نظرة كلية une vision globale تتناقض مع النظرة الجزئية بما هي نظرة آلية تموضع المريض، وتجعله مثل الآلة التي أصيبت في جزء من مكوناتها. هذا ما رفضه ياسبرس ورأى بأن واجب الطبيب هو التوجه نحو المريض وليس المرض، لأن التوجه إلى المريض هو توجه إلى كيانه ككل، وهو توجه نحو التفاعل الموجود بين مختلف المقومات التي يتشكل منها كإنسان.

كل هذا يفيد أن ياسبرس من خلال هذه القصدية الفينومينولوجية في الطب العقلي تجاه الوحدة l'unité التي يتصف بها المريض، يؤمن بكرامة المريض ما دام يرفض التصور الآلي للمريض من منطلق" أن الطبيب شخص لا يمكن أن ينسى كرامة المريض...ولا القيمة الفريدة لكل حياة إنسانية."(6)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا كنا في هذا السياق نعتبر تطبيق الفينومينولوجيا هو الجانب الإنساني في الفلسفة الطبية عند كارل ياسبرس، فإن هذا الأمر يمكن أن يبرر لنا القيمة الإنسانية في الفعل العلاجي و يوجهنا إلى مشكلة التواصل في الفعل العلاجي. وفي هذا السياق يقارن كارل ياسبرس بين ما هو علمي وما هو إنساني، فالمعرفة العلمية في نظره يتم تبليغها عن طريق التعليم وبشكل واسع وواضح، أما الإنسانية و الأخلاق في الطب فيتم تبليغها بواسطة شخصية الطبيب من خلال الروح الطبية التي تعتمد على علامات معينة في الحوار مع المريض من حيث هو حوار موجه نحو اكتشاف طبيعة المرض. ثم إن الفرق أيضا هو كون التعليم يخضع بالضرورة إلى التخطيط، ويقوم على الدقة والتعليمية وثبات الرأي، والتعرف على المعرفة العلمية بشكل منهجي و نقدي في نفس الوقت. وأما الجانب الإنساني فلا يمكن أن يخضع للتخطيط في نظر ياسبرس، ولا يمكن أن يكون تبليغه موحدا بين جميع الأطباء، إنما خصوصية التبليغ تتوقف على خصوصية كل طبيب على حدة (7).

ومن هذا المنطلق ، يمكن القول إن التوجه الإنساني إلى المريض يحتاج دائما إلى تواصل نفسي روحي صادق بين الطبيب والمريض، بشرط أن يتجدد هذا التواصل بينهما في كل موقف من خلال الحوادث الجديدة أثناء الحوار، ومن خلال المعلومات الجديدة التي يمكن أن تصدر عن المريض في أي لحظة، الأمر الذي لا يتعارض مع الطرح الفينومينولوجي الذي يقوم على الإدراك المباشر للظواهر وهي موجودة في ذهن الآخرين. وإذ نقول الإدراك المباشر ،فإننا نقصد بذلك الحدسl'intuition من حيث هو تصور فينومينولوجي عند إدموند هوسرل، أنا أرى منزلا وأرى الطيور تطير، وأرى سقوط الأوراق، أستمع أيضا لصوت الآلة الموسيقية و صوت الأطفال وهم يلعبون في الشارع، وأستمع أيضا لنفسي وأنا أتكلم بوضوح، أرى يدي، أيضا وأسمع الصوت الذي يصدره جسمي وهكذا. هذا ما نبه إليه هوسرل الذي قدم لنا هذه الأمثلة على أساس من التجارب المعيشة التي تحيط بالذات المدركة، le sujet percevant بحيث أكد على أننا يمكن أن نجرد هذه الحوادث بعد أن كانت الذات شاهدة عليها بصفة مباشرة و واضحة. وبالتالي تتضح قيمة الفكرة الفينومينولوجية من خلال تجردها من اللواحق التأويلية التي يمكن أن تؤثر على وضوح الفكرة، خاصة وأنها وليدة موقف معيش une situation vécue (8).

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن للوقائع المباشرة أهمية كبيرة في استنتاج الفكرة وفي استنتاج مختلف الدلالات التي يمكن أن تكون غامضة . فقد رأى كارل ياسبرس أن تاريخ علم النفس المرضى psychopathologie أثبت أنه كان مجرد تحصيل حاصل لأن معظم مدارسه لم تولي اهتماما كبيرا لهذه الوقائع، ورأى بأنها مرحلة مهمة من مراحل بناء الموقف الطبي. وقد فكر ياسبرس في هذه الوقائع، وحث الطبيب النفسي على الأخذ بها والتفكير فيها، لأنه لا يتعامل مع البدن كما قلنا بل يتعامل مع الإنسان. وبهذا وقف موقفا نقديا ورأى بأن الأمراض العقلية ليست أمراض المخ كما قال البعض، إنما هي أمراض الشخصية، لأن اضطرابات الكلام على سبيل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المثال لا يتوقف علاجها على الطبيب النفسي فقط، بل يحتاج الأمر إلى اللغوي الذي يجب أن يشارك هو أيضا في العملية العلاجية (9).

وبناء على هذا يتضح أن كارل ياسبرس يمارس نوعا من التحليل النفسي la psychanalyse ، لأنه يمارس العملية العلاجية انطلاقا من فلسفة معينة وهي فلسفة الوجود في العالم بما هي تعبير مباشر عن فلسفة الذات- الموضوع sujet-objet التي يمجدها كل الوجوديون، من منطلق أن فهم السلوك بوجه عام لا يمكن أن يتم بوضوح، إلا إذا كان محصلة للتفاعل التلقائي والأحداث والمواقف الراهنة . لا يمكن أن نفهم السلوك في هذا السياق بعيدا عن المواقف التي يحدث فيها ، كما لا ينفصل عن مقاصد الفرد والمرامي التي يؤمن بها. ومعنى هذا أن الوحدة السلوكية هي أساس التحليل النفسي، ذلك لأن سلوك الفرد قابل للفهم في أية لحظة . وإذا كانت المواقف التي تحدث في كل لحظة متمايزة ومختلفة فيما بينها بحكم الخاصية المعقدة للظاهرة الإنسانية، فإن الفهم la compréhension يمكن أن يتم بأشكال متعددة ومتلونة، على أن فكرة الوحدة أو وحدة السلوك unité du comportement تكمن في كون هذا التعدد والاختلاف في الفهم ينصب في شخص واحد يجمعها (10). وهذا ما ينطبق على طريقة كارل ياسبرس من خلال طريقته الفينومينولوجية في علاج المرضى العقليين حيث يقول: " في الفينومينولوجيا، يجب أن نهتم بكل ظاهرة نفسية وبكل ما يوحي به الحوار مع المريض، وما يوحي به تاريخه الشخصي، بحيث لا يمكن في أي حال من الأحوال أن نعتمد على الانطباعات العامة، ولكن علينا بدراسة كل التفاصيل وفهم كل واحد منها والاهتمام بها ". (11) ومعنى هذا أن التصور الفينومينولوجي للظاهرة العلاجية في الطب العقلي يعتمد على التحديد الشخصي للحالات المرضية، و بالتالي نفي كل ميزة قياسية عن الفعل العلاجي والرد بطريقة ضمنية على مختلف الأساليب التعميمية في الطب العقلي التي تعتمد على قياس حالة بحالة أخرى.

3- فينومينولوجيا الطب العقلي والمعاني الإنسانية عند كارل ياسبرس:

إن ما نستنتجه من هذا الطرح، هو الأهمية الذاتية التي أولاها ياسبرس للفعل العلاجي، من خلال نقله من الصيغة العلمية إلى الصيغة الفلسفية التي تعتبر الطب ظاهرة إنسانية بالأساس، تقوم على اعتبار الطبيب إنسانا قبل أن يكون طبيبا، وعلى اعتبار المريض إنسانا قبل أن يكون مريضا. ومن ثمة تكون العلاقة أساسا هي علاقة بين إنسان وإنسان، لأن " العلاقات بين المريض والطبيب تؤدي إلى علاقات بين إنسان وإنسان أين نعتبر واحدا منهما تلقى تكوينا علميا يحاول أن يساعد به الآخر الذي اضطربت صحته ". (12)

إن المنهج الفينومينولوجي طريقة فلسفية يحتاجها الفيلسوف كما يحتاجها العلماء أيضا، وبالتالي فإن أهمية هذا المنهج تكمن في أن الفلاسفة المعاصرين استنجدوا به، كما أن مختلف الدراسات والأنشطة العلمية استنجدت به مثل ياسبرس الذي حاول بناء الممارسة الطبية فينومينولوجيا. ليس هو فقط من حاول ربط الفينومينولوجيا بالعلم ،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لأن جورج كانغيلم Georges Canguilhem قام بنفس الشيء، ولكن مارس هذا المنهج بأسلوب مغاير لأسلوب ياسبرس وعلى موضوعات مغايرة لموضوعات البحث عند ياسبرس. فقد وصلت الفينومينولوجيا إلى كانغلم بطريقة غير مباشرة. لأنه لم يقرأ لهوسرل مباشرة بل حاول استيعاب منهجه عن طريق قراءته لبعض الفينومينولوجيين مثل مرلوبونتي Merleau-Ponty، حيث استفاد من هذه القراءات ووظفها في بحوثه، وخاصة في الفكرة التي ترفض التصورات الوضعية التي تعمل على تجزئة الكائن. لقد أفادته الفينومينولوجيا في بناء التصور الكلي للظاهرة الحية (13).

ثم إن هذا التصور الكلي هو الذي جعل كارل ياسبرس يرفض مختلف الأفكار التجريبية ، خاصة ما تعلق منها بالعلاج التجريبي الخالص الذي يعتمد في جوهره على الأدوية مادام التواصل الوجودي la communication existentielle مع المريض هو أساس العملية العلاجية. وهذا ما يؤلف التبادلية الوجودية بينهما، و يجعل البناء النفسي هو أساس هذا النوع من العلاج ، ذلك لأن " الأدوية الطبية لا يمكن أن تجلب سلامة النفس للمريض" . (14)

وعلى هذا الأساس أصبحت الفلسفة الطبية عند كارل ياسبرس، عبارة عن مناقشة فلسفية للمجال الطبي قبل أن تكون مناقشة علمية على أساس أن أهمية الأدوية تنحصر في كونها جزءا بسيطا من العملية العلاجية بحسب مختلف التصورات الإنسانية التي ترتبط بالفلسفة الطبية . إن الفعل القصدي l'acte intentionnel الذي يمارسه الطبيب خلال العملية التواصلية مع المريض لابد أن يكون في نظر كارل ياسبرس ذا إيحاءات فلسفية تدل على التعالي الفكري الذي يجب أن يتوفر عليه الطبيب بصفته فيلسوفا أيضا، على أننا نقصد بالتعالي في هذا المقام روح المسؤولية، من منطلق أن تلك التبادلية la réciprocité التي تحدث بين الطبيب والمريض تنطلق من الحرية وتنتهي إلى نوع من السلطة المحمودة، وإذ نقول محمودة، فإننا نعني بذلك أن صرامة التكوين التي يملكها الطبيب من الناحية العلمية تفرض أن يكون المريض دون المستوى العلمي الذي يملكه الطبيب من جهة، وتفرض على المريض أن يكون مطيعا للطبيب وبالتالي تكون هذه التراتبية l'hiérarchie تراتبية محمودة أيضا. يقول ياسبرس: " بالإضافة إلى هذا، فإن المريض لا يهمه أن يعرف ،بل ما يناسبه هو الطاعة. إن سلطة الطبيب مهمة أيضا بالنسبة للمريض، لأن هذه السلطة تعفي المريض من التفكير بنفسه ولوحده، وبالتالي تعفيه من المسؤولية..." .(15)

مما تقدم نفهم مباشرة أن كل من مسؤولية الطبيب وطاعة المريض للطبيب عبارة عن أخلاق تؤلف التصور الفينومينولوجي للفعل العلاجي، وهذا الأمر منطقي، لأن الفلسفة تتضمن الأخلاق التي تندرج ضمن مباحثها. ولقد قادت الأخلاق في هذا العصر إلى بعض التحولات على المستوى العلمي وعلى المستوى القيمي. صحيح أن ياسبرس وغيره من الفلاسفة أصحاب التوجه الإنساني صاغوا أولوية الجوانب المعنوية في الإنسان بالموازاة مع سيطرة المد التجريبي وتكريس مفهوم العلاج بلغة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علمية صارمة تعتمد على قواعد تجريبية خالصة، إلا أن بعض المناقشات الفلسفية لا تزال إلى يومنا هذا تراجع التطورات العلمية عن طريق إدراج المسألة الأخلاقية والقيمية في الواقع العلمي.

إن الاعتبارات الخاصة بنوعية الحياة التي تحيط بالمريض، تلزم التوجه الطبي بالمسؤولية تجاه الظروف الإيجابية التي يجب أن تحيط بالمريض، سواء كان مولودا جديدا أم كان معاقا أم مصابا بحيث يجب الاستجابة لمتطلباته المادية منها والمعنوية، وهذا ضرب من إعادة الاعتبار لشمولية الموقف العلاجي من حيث أن الشمولية خاصية من خصائص الفلسفة .(16)

ونظرا لأهمية المواقف الإنسانية والأخلاقية في الحياة بوجه عام وفي الحياة العلمية بوجه خاص ، فإن الغاية القصوى في هذا السياق هي الكرامة الإنسانية التي تجعل من الإنسان كائنا متعاليا ، و إذا كان متعاليا transcendant ، فإن هذا يعني أنه لا يمكن أن يوضع في مرتبة المواد العلاجية من الناحية الطبية، ولا يمكن أن يتم علاج مشكلاته المرضية بالطرق الآلية.

إن هذه الكرامة توجب أن يكون الإنسان غاية une fin وليس وسيلة un moyen تجعل منه أداة في هذا الوجود يقول ياسبرس: " فالذي يتساءل ما الإنسان قد يتمنى الحصول على الصورة الوحيدة الحقيقية عن الإنسان بذاته، ولكنه لا يستطيع. إن كرامة الإنسان هي أن عليه أن يمثل ما يتعذر الإعراب عنه. فإذا كان الإنسان كما هو فذلك لأنه يعترف بهذه الكرامة بذاته ولدى جميع سائر البشر. وقد عبر كانط عن ذلك تعبيرا مدهش البساطة : ليس في وسع أحد أن يتخذ الإنسان وسيلة، كل إنسان هو غاية بذاته " (17).

ومهما يكن من أمر فإن الموضوع الذي تناولناه بالتحليل والمناقشة، والماثل في التصور الفينومينولوجي للمسألة الطبية عند كارل ياسبرس، موضوع يحيل إلى نوع من التأويل l'nterprétation الذي يمكن أن نعتبره مشروعا بالنسبة إلى اعتماد الفلسفة بوجه عام على النشاط العقلي، ذلك لأن التحليل الفينومينولوجي للفعل العلاجي في نظر ياسبرس، يستدعي استحضار التصورات والمفاهيم الدالة على الفينومينولوجيا بصفة مباشرة، من منطلق أن استنتاج فكرة الموقف التي توصلنا إليها يقودنا إلى القول بفينومينولوجية الموقف العلاجي، أو مصطلح التبادلية réciprocité أو قولنا بالجانب الإنساني ، فالعامل الإنساني أيضا يدل على الفينومينولوجيا وكذا القصدية من حيث هي المفهوم المركزي في المنهج الفينومينولوجي.

الخاتمـة

وبناء على هذا يمكن القول إن كارل ياسبرس فيلسوف أحسن تطبيق الطريقة الفينومينولوجية على الظاهرة العلمية من حيث هي ممارسة طبية، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن الهدف الرئيس عند ياسبرس ليس التفنن في أساليب التربية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلاجية فقط عن طريق منهجية محددة أو عدة مناهج. لقد كان الهدف هو إدخال الفلسفة في الطب وإدخال الطب في الفلسفة، وبالتالي إدخال العلم في الفلسفة، وإدخال الفلسفة في العلم من أجل تعبيد الطريق أمام توحيد العلوم. هذا ما آمن به ياسبرس من خلال مؤلفاته التي كتبها بطريقة موسوعية، متأثرا في ذلك بالفلاسفة القدماء، ولأنه عن طريق الأفكار التي سخرها لخدمة الإنسان المعاصر رأى في سياق الممارسة الطبية أن الروح الفلسفية بما هي روح شمولية تبعث على انتقاء مختلف الأنساق القديمة وحتى الحديثة التي تنفع الفرد المعاصر، لأن هذا الأخير قد تضرر كثيرا من الأنساق العلمية الحديثة التي تسببت في مشكلة التخصص من حيث هي السبب في إهمال الإنسان المعاصر وإهمال كرامته، وبالتالي فالطريقة الفينومينولوجية كانت بمثابة حل وسط لمختلف النزاعات الفكرية والإيديولوجية، وخاصة بين المثالية والتجريبية، فلا يمكن أن يكون الفعل العلاجي تجريبيا خالصا ولا يمكن أن يكون مثاليا خالصا. هذا ما أراد ياسبرس بفينومينولوجيته أن يبرره من منطلق أن العلاج التجريبي الذي يتجه إلى المرض ولا يتجه إلى المريض، قد رسخ فكرة الإنسان الآلة وثبت على التفسيرات الميكانيكية الموروثة عن التصورات الوضعية وعن التصورات الماركسية أيضا. إن الأساس عند ياسبرس هو النتيجة التي يوصل إليها الحوار، لأن المقابلة الطبية في نظرة هي مقابلة إنسانية قبل أن تكون مقابلة علاجية. وما ينطبق على الطب في نظره ينطبق على مختلف المجالات الثقافية والفلسفية فقد حاول ياسبرس أن ينسج نسقا فلسفيا متكاملا على ضوء التوجه الإنساني العام الذي ميز فلسفته ويرجع ذلك إلى الخاصية التي ميزت الفترة المعاصرة من حيث هي خاصية تجريبية والتي دفعته إلى الاقتداء بنيتشة وكيركوغارد وغيرهما وإلى تصور الوقائع الحضارية والسياسية والثقافية تصورا يميل إلى المثالية أكثر من الانقياد وراء الآلية والتقنية لأن الأساس عند كارل ياسبرس هو سعادة الإنسان. ولذلك كانت الفينومينولوجيا في علاقاتها بمختلف الأفكار والوقائع التي تحيط بالإنسان المعاصر مفهوم فلسفي من بين الكثير من المفاهيم التي تنطوي عليها فلسفة كارل ياسبرس والتي من شأنها أن تعيد الاعتبار للنفس الإنسانية وللمعاني التي تتألف منها كالشعور والوعي والعقل والتأمل. إنها مفاهيم وجودية تخدم حيزا هاما من حياة الإنسان وخاصة الإنسان المعاصر الذي يحتاجها بصفة متنوعة ومستمرة إلا أننا يمكن أن نناقش ياسبرس في مسألة مهمة. صحيح أن التقنية أبعدت الإنسان عن جوهره الحقيقي، ولكن الأساس ليس نقد الأنساق العلمية والآلية في الطب وغير الطب فقط، فهي موجودة كحقيقة واقعية ثابتة، إنما يجب استغلال هذه اللواحق العلمية استغلالا إنسانيا، ذلك لأن التطور التكنولوجي الهائل قد يساعد على شؤون إنسانية، فإذا كان تشخيص الأمراض يعتمد في نظر ياسبرس على التواصل مع باقي التخصصات والعلوم المتميزة عن مجال الاختصاص، فإن هذا الأمر أصبح في وقتنا هذا أسهل بكثير حيث أصبحت المعلومة الطبية أكثر انتشارا بين الباحثين والأطباء، الأمر الذي يساعد على التنسيق السريع بين الطبيب الذي يعالج المرض وغيره ممن يساعدونه على تشخيص المرض، وذلك بفعل تطور تكنولوجيات المعلومة. إن هذا التنسيق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا يخرج عن كونه فلسفة أيضا بلغة كارل ياسبرس، لأنه مجال يوحد بين التخصصات وهي الوحدة التي نعتبرها دائما فلسفة.

الهوامش

1. Karl Jaspers, Philosophie ,traduit par :Jean Hersh ,Springer-Verlag Berlin Heidelberg ,1989 , p 100.

2. علي زيعور مذاهب علم النفس، ط 3، دار الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1980، ص 132.

3. فؤاد كامل وآخرون الموسوعة الفلسفية المختصرة ب ط ، مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة 1963 ، ص 92.

4. محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي، جامعة بيروت العربية، بيروت 1974، ص 79.

5. روديجر بوبنر، ترجمة فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1988، ص 39.

6. Karl Jaspers , Essai philosophiques ; Payot , Paris , p141.

7. Ibid , p141.

8. Alain Berthoz et Jean-Luc Petit , Phénoménologie et physiologie de l'action, Odile Jacob, 2006 , pp 131-132.

9. حسن حنفي، كارل ياسبرس يرثي نفسه، مجلة الفكر المعاصر، العدد 53 ، القاهرة 1969، ص 12.

10. محمود الزيادي، التحليل النفسي الوجودي، مجلة الفكر المعاصر، العدد 63، القاهرة 1970، ص 57.

11. Karl Jaspers, Psychopathologie générale, traduit par : A. Kastler et J. Mendousse, Felix Alcan , Paris , 1933 , p 49.

12. Karl Jaspers , Essais philosophiques , Opcit , p : 143.

13. رشيد دحدوح ، تاريخ و فلسفة العلوم البيولوجية و الطبية عند جورج كانغيلهم (رسالة دكتوراه في الفلسفة) جامعة منتوري ، قسنطينة 2005-2006 ، ص ص : 134-135.

14. Karl Jaspers , Essais philosophiques , Opcit , p : 147.

15. Ibid, p : 144.

16. Guy Durand , Introduction générale à la bioéthique , FIDES, Canada , 2005 , p : 205.

17. كارل ياسبرس ، نهج الفلسفة ،ترجمة عادل العوا ، دار الفكر ، دمشق ، 1975 ، ص : 62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com